



قبرية أبي إسحاق إبراهيم اللخمي (1585/993): طريقة مبتكرة في التأريخ وقاض وطاعون مجهولين

لطفي عبد الجواد*

ملخص

شاهد قبري قيرواني مفقود وغير منشور يحتوي عدد من المعلومات الفريدة حول شخصية تبدو على درجة من الأهمية والوجاهة تنحدر من أصول عربية عريقة وتتصف بالمعرفة الكبيرة في مجال الفقه والأصول والعلوم العقلية إلى جانب تقلدها منصب القضاء ومع كل هذا تصمت المصادر المختلفة عنها (أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن أبي إسحاق إبراهيم الأزدی الأنصاري اللخمي). كما يحتوي الشاهد على ذكر للطاعون سببا للوفاة وهو الآخر غير مذكور في المصادر، هذا بالإضافة إلى طريقة مبتكرة في التأريخ للوفاة باعتماد "حساب الأبجد المغربي المرتب تصاعديا من الأحاد إلى العشرات إلى المئات". كما يقدم هذا الشاهد معطيات جديدة حول تطور فنون الكتابة والنقش على الحجارة وورشاتها بمدينة القيروان خلال النصف الثاني من القرن العاشر هجري (القرن 16 ميلادي).

الكلمات المفتاحية: أبو إسحاق اللخمي، الطاعون، الخط المغربي، القيروان، النقائش الجنائزية.

Résumé

Une stèle funéraire kairouanaise aujourd'hui disparue et dont on ne possède que la photographie, fournie diverses d'informations inédites sur une haute personnalité ifiqiyenne inconnue des sources (le qâdi, faqih et savant Abou Ishâq Ibrâhîm al-Lakhmî), décédée en l'année 993 / 1585 à cause d'une peste qui, à son tour, ne figure pas sur la liste des épidémies du XVI^e siècle. Cette année est exprimée dans le texte avec un nouveau type de chronogramme en « abjad » basée uniquement sur les lettres ponctuées respectant l'ordre croissant des unités, des dizaines et des centaines. La graphie de cette stèle marque une évolution notoire dans le style « maghribî » et témoigne de l'existence d'un atelier lapidaire installé à Kairouan et exerçant depuis la fin de la première moitié du dixième siècle de l'Hégire (16^e siècle J. C.).

Mots clés : Abou Ishâq Ibrâhîm al-Lakhmî, peste, Kairouan, épigraphie funéraire.

Abstract

A Kairouanese funeral stele that has now disappeared and whose only photograph is available, provides various unpublished informations on a high Ifiqiyan personality unknown to the sources (qâdi, faqih and scholar Abu Ishâq Ibrâhîm al-Lakhmî), who died in the year 993 / 1585 because of a plague that did not appear on the list of epidemics in the 16th century. This year is expressed in the text with a new type of chronogram in "abjad" based only on punctuated letters respecting the increasing order of units, tens and hundreds. The script of this stele marks a notable evolution in the "maghribî" style and testifies to the existence of a lapidary workshop installed in Kairouan and operating since the end of the first half of the tenth century of the Hegira (16th century A.D.).

Keywords: Abu Ishâq Ibrâhîm al-Lakhmî, lapidary workshop, Kairouan, funeral ephraphy.

المراجع لذكر المقال

لطفي عبد الجواد، "قبرية أبي إسحاق إبراهيم اللخمي (1585/993): طريقة مبتكرة في التأريخ وقاض وطاعون مجهولين"، السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغربية [نسخة الكترونية]، عدد 7، سنة 2019.

الرابط : <http://www.al-sabil.tn/?p=16809>

* مكلف بالبحوث الأثرية والتاريخية بالمعهد الوطني للتراث.

لم نستطع إلى حدّ هذا المستوى من البحث العثور على هذا الشاهد القبري موضوع الدّراسة، ولا نملك حولها سوى بطاقة صورة محفوظة بأرشيف مكتبة الصور بالمعهد الوطني للتراث بتونس مكتوب على ظهرها رقم شريحة الفلم (cl. 8195A) وتاريخ التصوير (جانفي 1954) وعبارتي "القيروان" و"سيدي بوخريصان". وهذه الإشارة الأخير تحيل على تربة بني خراسان الشهيرة والتي كشف عنها الفقيه سليمان مصطفى زبيس خلال حفريات سنة 1949 في موقع مقبرة السلسلة غير البعيد عن جامع القصر الخراساني بمدينة تونس (حي باب المنارة عدد 12 نهج بن محمود). هذه التربة يتصدرها ضريح مفتوح تعلوه قبة أمر بعملها "السلطان أبي محمد عبد العزيز والأمير أبو الطاهر إسماعيل ولدا الشيخ عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان سنة 486 / 1093" كما يشير إلى ذلك الشريط التخليدي الذي يتوج واجهاتها الأربعة. وقد تم تحويل هذه التربة إلى متحف مفتوح في الهواء الطلق للنقائش العربية بعد أشغال التي أجريت فيما بين سنتي 1981-1983. وأما عبارة القيروان فهي تحيل دون شك على مصدر الشاهد، فقد ضمت مجموعة متحف سيدي بوخريصان عددا لا بأس به من نقائش هذه المدينة.

بالرغم من اندثار الجزء الأعلى للنص فإنّ المقاربة الصياغية تمكّن بسهولة من إتمامه وتبين ملامحه العامة. وقد ظهرت بعد فك رموزه مجموعة من العناصر تؤهله لنيل درجة عالية من الأهمية ضمن مدونة النقائش الإفريقية عامة والمدونة القيروانية بصفة خاصة. فهو يتضمن ذكرا لشخصية بارزة ارتبطت بها مجموعة من الألقاب والصفات بعضها غير مألوف في النقائش، كما تتضمن ذكرا للطاعون سببا لوفاة هذه الشخصية وتاريخا مشفرا بطريقة مبتكرة هي على حد علمنا الأقدم استعمالا بين نقائش إفريقية.



صورة 1. صورة للشاهد القبري (أرشيف مكتبة الصور بالمعهد الوطني للتراث بتونس (cl. 8195A / 1954)

بعض المعطيات حول الجوانب المادية للشاهد المفقود

نشير في البداية إلى أنه يمكن إبداء جملة من الملاحظات وتقديم بعض المعطيات اعتمادا على صورة الشاهد المفقود وعلى مقارنة هذا الأخير مع شاهد قيرواني آخر على درجة كبيرة من التشابه معه من حيث الشكل والزخرفة والكتابة محفوظ حاليا بمخازن متحف

رقادة (تحت رقم الجرد عدد 1028) وقد كان في الأصل موجودا بزاوية سيدي عبد الله بن أبي زيد القيرواني¹. وقد يظهر للوهلة الأولى أن الشاهد نقش على لوحة حجرية مستطيلة لها قاعدة سفلية ولكن الحقيقة أن هذه القاعدة إنما هي إضافة لاحقة يؤلفها ملاط جيري استعمل في عملية تثبيت اللوحة. ويكفي الانتباه إلى السطرين الغائرين الذين نقشا خارج حقل الكتابة والذين تغطي جزءا منهما هذه الطبقة الجيرية دليلا على ذلك. ويبدو أن النقيشة المحفوظة برقادة قد تعرضت هي الأخرى إلى نفس المصير في فترة معينة ولكن وقع فيما بعد إزالة الطبقة الجيرية التي بقيت بعض آثارها في السطر الأخير منها وفي شريط زخرفتها الأسفل. ويمكن استغلال هذا المعطى السالف الذكر مؤشرا للدلالة على اشتراك النقيشتين ضمن إطار دفن ضيق واحد.

وفي غياب أي مؤشر دقيق حول المادة التي نقش عليها هذا الشاهد أو حول أبعاد اللوحة وأحجام الحروف، يمكن لنا أن نلتجئ أيضا إلى مبدأ القياس على نقيشة رقادة التي أنجزت على لوحة من الرخام الأبيض-الرمادي، يبلغ عرضها 47.5 صم وارتفاعها 82 صم وسمكها 8.5 صم. ويحيط بالنص إطار على شكل شريط نباتي مؤلف من أغصان متموجة تتخلل أركانه الأربعة ورييدات مكونة من بتلات ثمانية. ويلاحظ أن هذه الزخرفة تشبه تماما تلك التي نفذ بها إطار نقيشة رقادة.



صورة 2. شاهد قبري بزاوية عرفة الشابي بالقيروان. متحف رقادة، الجرد عدد 1027 (الصورة للمؤلف).

ويتألف هذا النص في الجملة من 14 سطرا، نقش اثنا عشر منها بطريقة بارزة داخل الحقل المخصص للكتابة -وذلك باعتبار الأسطر الثلاثة الأولى المندثرة- بينما نقش سطران غائران في حروف اقل حجما خارج هذا الحقل وتحديدًا أسفل الشريط الأسفل للإطار الزخرفي ويمكن تفسير هذا التباين في الحجم والتقنية بعدم كفاية الفضاء المخصص للكتابة. ويلاحظ أن الأسطر الكائنة داخل حقل الكتابة لا تفصلها مساطر على عكس ما هو موجود في نقش رقادة. وقد استعمل في هذا النص الاعجام وعلامات الاعراب كما استعملت بعض الزخارف النباتية المنفصلة بغاية ملء الفراغ فوق الحروف المنخفضة.

¹ هذا الشاهد نشر منذ سنة 1939 لدى مانشيكور في كتابه عن القيروان والشابية، ص. 80-81 وهو شاهد قبر أحد أحفاد عرفة الشابي (مؤرخ بسنة 964 / 1557)، وهو اليوم محفوظ بمخازن الآثار بمتحف رقادة تحت رقم الجرد عدد 1028: "..... هذا قبر سيدي أبو الخير بن أحمد بن أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن مخلوف الشابي الهذلي توفي ليلة الخميس لست يقين من ربيع الثاني عام اربعة وستين وتسعمائة وهو يشهد ان.....".



الأسطر المكتوبة داخل حقل الكتابة:

1. [بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على ... ؟]
2. [..... ؟]
3. [الحمد لله الدائم لا إلى امد الباقي بعد كل أحد]
4. [سبـ] حنه (هكذا) [مـ] اـ [خـ] ذ صاحبة ولا [لد تعالى عن]
5. الاضداد والانداد وجل ان يعتريه شيء
6. من امور العباد وأرسل محمدا صلى الله عليه
7. وسلم رحمة للعباد هذا قبر القاضي
8. العدل الفقيه المعقولي الاصولي
9. المحدث الفرضي المدرك المشارك ابو اسحاق
10. ابراهيم ابن (هكذا)² الحسن ابن العبد الفقير إلى الله
11. ابو اسحاق ابراهيم الازدي الانصاري اللخمي توفي (في) (هكذا)³
12. الطاعون يوم الاربعة (هكذا) ثاني عشرين من شعبان عام جـ ضـ غـ (هكذا)⁴

خارج حقل الكتابة (كتابة غائبة):

13. وهو يشهد ان لا إله الا الله وان محمدا رسول الله وان وعد الله حق وان السا
14. [عة (هكذا) آتية لاريب فيها وان الله يبعث من في القبور]

I. طريقة مبتكرة في التأريخ بحساب الأبجد

إن الحروف الثلاثة الواردة معجمة ومنفصلة عن بعضها بعد الإشارة إلى يوم الوفاة (جـ ضـ غـ) تدعو إلى افتراض منطقي يحيل دونها غناء كبير على السّنة التي سجّلت فيها هذه الوفاة. وبمجرد تطبيق قاعدة البحث عن القيمة الرقمية للحروف باعتماد الجداول المعروفة في "حساب الجمل" والخاصة بمنطقة المغرب الإسلامي، وبعد القيام بعملية الجمع، تم التّوصّل إلى تأريخ هذه النقيشة بما يساوي مجموعها سنة "ثلاث وتسعين وتسعمائة" وذلك على اعتبار قيمة حرف الجيم الذي يوافق العدد ثلاثة وحرف «الضاد» الذي يوافق العدد تسعون وحرف "الغين" الذي يوافق العدد تسعمائة. ويوافق هذا التاريخ بالتقويم الميلادي يوم 19 أوت من سنة 1585. ويسجل هنا أول تأريخ بنقائش إفريقية استعملت في صياغته طريقة "حساب الجمل" المغاربي بحروف منفصلة. كما يلاحظ أن هذه الحروف خاضعة للترتيب الأبجدي التصاعدي وأن اجتماعها خاضع أيضا للمنطق التصاعدي لأرقام الآحاد والعشرات والمئات قراءة وترتبا. ويسجل هنا أقدم تأريخ بإفريقية يكون فيه العدد على هذا المنوال.

المئات	العشرات	الآحاد
غـ	ضـ	جـ
900	90	3
993		
عام ثلاثة وتسعون وتسعمائة		

² خطأ في الرسم: كلمة "ابن" بين اسمي علم يحذف منها الألف.

³ يبدو ان النقاش استغنى متعمدا عن حرف الجر "في" واستعمل حرفي "الفاء" و"الياء" في نهاية كلمة "توفي" لتعويضه. وهذه ممارسة معروفة يفرضها ضيق المساحة. انظر مثلا النقيشة رقم 112، ص. 247-248 في:

Lotfi Abdeljaouad, 2001.

⁴ حروف منفصلة تحيل على التاريخ بطريقة "حساب الإيجد" (انظر أسفله).



ومن المهم الإشارة بالنسبة للنقيشة موضوع الدرس إلى أن اللجوء إلى هذا الأسلوب في التأريخ لم يكن اختياريا بقدر ما هو تصرف من قبل النقاش لتجاوز عقبة ضيق المساحة المتبقية والتي لا تسمح بأي من الأحوال بكتابة التاريخ على الطريقة التقليدية المعروفة في كل نقائش إفريقية إلى حدود ذلك الوقت وحتى تلك التي أنتجت الورشة ذاتها بالقيروان. ولعل مواصلة النص بتقنية النحت الغائر خارج حقل الكتابة دليل واضح على هذا الارتباك وعلى غياب التخطيط المسبق والمحسوب. ولعل الحرص على ضبط المعطيات المتعلقة باسم المتوفى ونسبه وأصوله ومكانته العلمية والدينية (خمسة أسطر) كان على حساب الصيغ الأخرى التي تليها. ويمكن استغلال هذا التصرف للتأكيد على شيوع استعمال هذه الأساليب في التأريخ والمعرفة بها في ذلك الوقت وربما من قبل ذلك. ويجدر التذكير بأن هذه الطريقة قد استعملت في التأريخ لدى العرب واليهود منذ زمن قديم في مجالي علم التنجيم والسحر وكذلك في الشعر⁵. وعلى حد علمنا يرجع أقدم استعمال لهذه الطريقة على المحامل الأثرية بإفريقية إلى سنة 746 هـ / 1345-1346م وذلك في التاريخ المكتوب على مزولة عثر عليها بموقع قرطاج "صنعها أبو القاسم بن حسن الشداد سنة **ذمو** بتونس". كما يشار إلى وجود مزولة أخرى بمدينة تلمسان تعود إلى سنة 747 هـ / 1346-1347م وقد "صنعها أحمد بن محمد اللمطي في شهرها من سنة **ذمر**".⁷

مزولة تلمسان			مزولة قرطاج		
المئات	العشرات	الآحاد	المئات	العشرات	الآحاد
ذ	م	ز	ذ	م	و
700	40	7	700	40	6
747			746		
عام سبعة وأربعين وسبعمائة			عام ستة وأربعين وسبعمائة		

وقد عثر في ضريح زاوية الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الجليل بن فندار المرادي بالقيروان على لوحة خشبية مؤرخة بهذه الطريقة تعود إلى سنة 782 / 1380-1381، إلا أنه يشك في كون نصها قد صيغ أو أعيدت صياغته في زمن متأخر⁸.

ونشير في هذا السياق إلى أن مبدأ الترتيب على منوال الآحاد والعشرات والمئات يمكن تطبيقه على تلك المزولة القيروانية التي تحمل حروفا ثلاثة متصلة للدلالة على تاريخ صنعها بما يوافق سنة 1099 هـ / 1687-1688م ("صنعة محمد بن فارس / في عام ططش")⁹

الآحاد	العشرات	المئات	الآلاف
ط	ض	-	ش
09	90	00	1000
1099			
عام تسعة وتسعون وألف			

II. قاض قيرواني مجهول

بالرغم من الوضوح التام لتركيب اسم المتوفى من حيث الكنية والاسم والنسب والانتماء القبلي (أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن أبي إسحاق إبراهيم الأزدي الأنصاري اللخمي)، وبالرغم من علو مكانته العلمية والاجتماعية كما تشير إلى ذلك جملة الألقاب والصفات التي نسبت إليه ("القاضي العدل الفقيه المعقولي الأصولي المحدث الفرضي المدرك المشار")، إلا أن المصادر المختلفة الأخرى -أدبية كانت أو وثائقية- لا تذكر هذه الشخصية وهو أمر يدعو إلى التساؤل والاستغراب. ولعل أهم القوائم التي رصدت قضاة القيروان والتي لم تذكر أبا إسحاق إبراهيم كتاب "تاريخ قضاة القيروان" للشيخ محمد الجودي (ت. 1373/1943) الذي اعتمد في

⁵ انظر: Georges Ifrah, 1981, p. 229-236.

.., p. 229-236

⁶ انظر: فتحي الجراي، 2015، ص. 30-31.

G. RYCKMANS et F. MOREAU, 1926, p. 33-34 et 41.

⁷ انظر:

Charles BROSELARD, 1860, p. 324 et Rachid BOUROUBA, 1984, p. 148.

⁸ انظر: Fathi Jaray, 2007, t. II, p. 745.

⁹ Fathi JARRAY, 2016, p. 227-236.

فتحي الجراي، 2015، ص. 50-51.



تأليفه على كتب التاريخ والتراجم وعلى الرسوم والوثائق العتيقة بهذه المدينة¹⁰. إنَّ هذا الصمت يمكن تفسيره بفرضية أولى قوامها أن يكون المتوفي قاضيا بمدينة أخرى من مدن إفريقية وقد يكون لدفعه بالقيروان علاقة بانتمائه إليها موطنًا. وأما الفرضية الثانية فهي أن يكون أبا إسحاق شخصية مقربة من الدوائر الضيقة لرواد للحركة الشاذلية وأنه ربما لعب دورا ضمن المؤسسات التي كانت تديرها¹¹ فاستحق الدفن في فضاء قريب جدا من مقام عرفة الشاذلي وهو ما توحى به تلك التشابهات الكبيرة المذكورة أعلاه مع شاهد قبر حفيد هذا الأخير. ومن المؤكد أنَّ أبا إسحاق عاش مرحلة استقلال الإمارة الشاذلية بالقيروان سنة 1535 / 942 حتى سقوطها سنة 1557 / 964 كما أنه عاصر حملة سنان باشا على تونس سنة 1573 / 981 وتحول هذه الأخيرة إلى إيالة عثمانية في السنة الموالية. لكن فرضية انتمائه إلى الحركة الشاذلية تصطدم بغياها أيضا من مصادر تاريخ هذه الحركة.

أما التركيبة الثلاثية للنسبة القبلية لأبي إسحاق (الأزدي الأنصاري اللخمي) فهي تحيل على رغبة في تأكيد أهمية انتمائه العرقي لكون "لخم" و"أزد" تشترك في انحدرهما من قسم العرب العاربة القحطانيين ومن قبيلة كهلان تحديدا (القبيلة الثانية من بني سبأ). وأما نسبة "الأنصاري" فهي كناية عن قبيلتي "الأوس" و"الخرزج" وهما بطنان من بطون "الأزد". وفي هذا السياق يشير القلقشندي إلى أنَّ الأوس والخرزج "انتشروا في الفتوحات الإسلامية في الأفاق شرقاً وغرباً وهم موجودون بكل قطر، إلا أنه قل منهم من يعرف نسبه من الأوس والخرزج، بل اكتفوا بالنسبة إلى الأنصار¹². إنَّ هذا التراكم في الانتساب القبلي يمكن أن يكون ناتجا عن اختلاف انتماء الوالدين، كأن يكون والد المتوفي أنصاريًا من "الأوس" أو "الخرزج" الأزديين ووالدته من "لخم" أو العكس بالعكس. كما يمكن أن يكون هذا التراكم ناتجا عن الانتماء لقبيلة والولاء لأخرى، وهو أمر معروف في تاريخ العرب.

إنَّ جملة الصفات التي اتصلت باسم هذا القاضي تعبر عن علو درجته العلمية وعن تبجّره في الفقه الإسلامي وأصوله (الأصولي) ومعرفة الدقيقة بعلم الموارث (الفرضي). وعلى معرفته بالعلوم المنطقية العقلية (المعقولي) وعلى حضوره ومشاركته في هذه العلوم المختلفة. وكل هذه المصطلحات يتردد ذكرها في كتب التراجم بصفة خاصة عند الترجمة للعلماء المشهورين في عصرهم.¹³

III. طاعون مجهول

إنَّ الطاعون المذكور سببا لوفاة أبي إسحاق سنة 1585 / 993 غير معروف في المصادر المختلفة. وتجدر الإشارة إلى أن أقرب طواعين إفريقية إلى هذا التاريخ ورد في شاهد قبر قيرواني مؤرخ بشهر محرم من سنة 1574 / 982 م أي قبل إحدى عشرة سنة من حدوثه¹⁴. كما يوجد شاهد قيرواني ثان يؤرخ للوفاة بالطاعون في سنة 981 هـ / 1573 م¹⁵. وتجدر الإشارة إلى أن طاعونا ضرب مدينة نانت الفرنسية في سنة 1585 / 991¹⁶ كما ضرب بقوة من قبله طاعون آخر مدينة البندقية في شهر جوان من سنة 1575 / 983 وتواصل بها إلى حدود سنة 1577 / 984 وكان مصدره القسطنطينية¹⁷. ولعلَّ سبب هذا الصمت المسجل في المصادر حول هذا الطاعون طابعه المحلي أو محدوديته الزمنية، هذا علاوة عن التغير في النظرة إليه وتوسع دائرة الأوبئة القاتلة المنضوية تحت مسماه حتى وان لم تكن واسعة الانتشار. إلا أنه يجدر التنويه إلى أنَّ عبارة "توفي (في) الطاعون" الواردة في النص قد تكون لها دلالة على انتشار ولو محدود للوباء وتتفي صفة الخلط بين الأوبئة الأخرى. كما يجدر التذكير بأنَّ الإشارة إلى الوباء في حدِّ ذاتها إنما تعبر عن أحد موقفين

¹⁰ محمد الجودي القيرواني ت. 1373/1943، 2004.

¹¹ حول هذه المؤسسات انظر: يوسف بن حيدة، 2016-2017، ص. 112.

¹² أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، المتوفى سنة 821 / 1418-1419، 1982، ص. 27-15. انظر أيضا أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد القرطبي الظاهري ابن حزم الأندلسي، المتوفى: 456 هـ، 1983، ج. 2، ص. 484.

¹³ محمد بن قاسم الأنصاري أبو عبد الله الرضا، التونسي المالكي (المتوفى: 894 هـ)، 1350 هـ ج 1 ص 9 "المسألة الرابعة) الشَّيْخُ -رَحْمَةُ اللهِ- لَمَّا كَانَ إِمَامًا فِي الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ مُحَقِّقًا حَقَائِقَ الدَّقَائِقِ". انظر أيضا: الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن، المتوفى: 1237 هـ)، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل بيروت، ج 1، ص. 550 ومات الفقيه النبيه المتقن الأصولي النحوي المعقولي الجدلي الشيخ مصطفى المعروف بالريس البولافي الحنفي "و ص 601 ج 1 "ومات أوحد الفضلاء وأعظم النبلاء العلامة المحقق والفهامة المدقق الفقيه النبيه الأصولي المعقولي المنطقي الشيخ أبو الحسن بن عمر القلعي ابن علي المغربي المالكي".

¹⁴ هذا الشاهد غير منشور إلى الآن وهو منسوب إلى إحدى الشخصيات الدينية المرتبطة بالقيرواني المشهور سيدي أبي يوسف يعقوب الدهماني. هذا الشاهد محفوظ حاليا بمستودع الآثار قسم النقائش الإسلامية بمتحف رقادة ويحمل رقم الجرد عدد 263: ".....قبر [أبي عبد الله محمد بن الشيخ / المرابط أبي عبد الله محمد الد / همامي (هكذا) اليوسفي ... توفي شهيد الطاعون وهو يشهد / ان لا إله إلا الله وان محمد رسول الله / في شهر محرم عام اثنين وثمانين و (هكذا) / تسعماية"

¹⁵ انظر: لطفي عبد الجواد، 2013، ص. 96-98: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد النبي الشـ(ف)يع والـه وصحبه وامته قل هو نـبا عظيم أنتم عنه معرضون هذا قبر القاري الأكمـل الأحفل الإمام المرحوم أبي العباس أحمد بن الشيخ المرابطي محمد بن الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله بن الشيخ الولي الصالح أبو محمد (هكذا) بن عبيد الغرياني صاحب زاوية شيخه الجديدي توفي في أوائل محرم شهيد الطعون (هكذا) عام أحد (هكذا) وثمانين تسعماية"، حول النقيشة انظر أيضا:

B. ROY et P. POINSSOT, 1983, n° 607, p. 148.

¹⁶ انظر:

Inventaire sommaire des archives communales antérieures à 1790 (ville de Nantes), Série Bb., 1582-1583.

peste e societa a Venezia nel 1576, Vencence Neri Pozza, 1978; Venezia e la peste, 1348-PRETO (Paolo) انظر:

1797, Comune di Venezia, Assessorato alla cultura e belle arti, Marsilio editori, Venise, 1979.



سائدين يبنني على الحديث النبوي الذي يربط بين الموت بسبب الطاعون ودرجة الشهادة. ولكن غياب صفة "شهيد الطاعون" في نصنا على عكس ما ورد نقائش الطواعين الأخرى السابقة بالقيروان¹⁸ لا يبدو مرتبطا بموقف مغاير وإثما هو مجرد اقتصاد في المساحة بالنظر إلى ضيقها -كما بينا أعلاه- حيث تم اللجوء إلى طريقة حساب الأبجدي المختصرة في التأريخ للوفاة وإلى الكتابة خارج إطار النص لإتمام محتواه.

ومهما يكن الأمر، فإن كان طاعون سنة 993 / 1583 وباءا حقيقيا، فإن نصنا يمثل وثيقة فريدة لإدراجه ضمن الدورة الوبائية المتكررة بإفريقية فيما بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين (القرنين 14 و 15 ميلاديين).

IV. ورشة قيروانية جديدة وأساليب فنية متطورة

إن الملاحظة الأولى التي تجلب الانتباه تتمثل في محاولة النقاش أو الخطاط تقليد الأسلوب الكوفي المورق المنتشر بالقيروان وخاصة خلال الفترة الصنهاجية. ويظهر هذا التقليد جليا في النهايات الثلاثية الفصوص المتناظرة وفي أشكال بعض الحروف مثل العين وكذا الشأن بالنسبة إلى الإطار الذي يحيط بالكتابة. وهذه الظاهرة شاعت في القيروان منذ نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجريين (ق. 14 و 15 م). وهي مرحلة سجل فيها انقطاع للأسلوب النسخي المتطور المعروف في الفترة الحفصية سواء في شواهد القبور أو في نقائش العمارة. في مقابل اعتماد أسلوب جديد يمكن تشبيهه بأسلوب "الخط المغربي المتمشرق" لما يحتويه من مراوحة هجينة بين الكتابتين المغربية والكوفية في النص الواحد بل داخل الكلمة الواحدة كان من نتائجها عدم الاستقرار على نسق ثابت. إن التشابهات الكبيرة المسجلة بين شاهد أبي إسحاق اللّخمي وشاهدين آخرين لحفيدين من أحفاد الشيخ عرفة الشّلي مؤرخين تباعا بسنة 963 هـ / 1556 م وسنة 950 هـ / 1543 م¹⁹، تسمح بنسبة هذه المجموعة إلى ورشة واحدة عملت بالقيروان طوال هذه الفترة. وبالرغم من صعوبة تصنيف الورشات خلال هذه المرحلة من تطور الكتابة في نقائش القيروان، فإنه يمكن نسبة هذه المجموعة إلى ورشة محلية وقّع صاحبها على شاهد مؤرخ بسنة 940 هـ / 1534 م ("عمل عبد الله ال...؟"). وقد كتب هذا الشاهد الأخير أيضا بأسلوب مغربي ينهل كثيرا من الأساليب الكوفية²⁰. وبنا على هذه السلسلة من التأريخ تبرز أهمية شاهد أبي إسحاق اللّخمي كمؤشر على طول عمر هذه الورشة حيث تجاوزت نصف القرن من العمل. وإن كان الأمر كذلك فإنه يمكن اعتمادها مؤشرا على اتجاه في تطوير أساليبها الفنية نحو كتابة أكثر توازنا وجمالية وانتظاما. ولكن تعترضنا في هذا المضمار صعوبة تتمثل في قلّة النقائش التي يمكن نسبتها إليها ضمن مجموع نقائش هذه الفترة اللهم إذا ضمنا إليها تلك الكتابات الشاهدية المنجزة بأساليب مغربية أخرى متروكة ومختلفة عنها نسبيا.

الخاتمة

اجتمعت في نصّ هذا الشاهد القبري المفقود معلومات متنوعة وفريدة حول شخصية تبدو على درجة من الأهمية والوجاهة وحول طاعون وطريقة مبتكرة في التأريخ للوفاة وكذلك حول تطور فنون الكتابة والنقش على الحجارة بمدينة القيروان. أما بالنسبة إلى الشخصية موضوع التخليد فهي غير معروفة في مختلف المصادر المتوفرة إلى حد الآن حول قضاة إفريقية وعلماؤها في التاريخ المشار إليه في النصّ. وفي انتظار ما قد يستجدّ حولها أو حول أسباب الصمت عن ذكرها يمكن اعتماد نصّ هذه النقيشة وثيقة دالة على وجودها والبناء عليها في إدراج الفقيه العالم أبي إسحاق إبراهيم بن الحسن بن أبي إسحاق إبراهيم الأزدي الأنصاري اللّخمي ضمن قائمة المتصدرين لمنصب القضاء بصفة رسمية بالقيروان أو بإحدى الحواضر الإفريقية الكبرى أو بصفة غير رسمية ضمن إحدى مؤسسات الإمارة الشّابية التي استقلّت بالقيروان في حياة أبي إسحاق. ولا شيء ينفي في كل هذه الحالات وجود علاقة تربط هذا الأخير بسلالة العالم الشهير أبي الحسن علي اللّخمي أصيل القيروان ونزيل صفاقس والمتوفى سنة 478 / 1085. وأما الطريقة المبتكرة في التأريخ فهي تعتمد الحروف المنفصلة باستعمال "حساب الجمل الأبجدي" المغربي، وهي الأقدم إلى حدّ الساعة بين نقائش إفريقية التونسية. بل إنها الأقدم أيضا من حيث خضوعها للمنطق التصاعدي لأرقام الآحاد والعشرات والمئات قراءة وترتيا. أما الطاعون المذكور سببا لوفاة أبي إسحاق سنة 993 / 1585 فهو غير معروف في المصادر المختلفة أيضا. ولعلّ مرّد هذا الصمت راجع إلى طابعه المحلي أو محدوديته الزمنية كما يستنتج من عبارة "توفي (في) الطاعون" الواردة في النصّ. ومهما يكن الأمر فإنّ نصنا يمثل وثيقة تسمح بإدراجه ضمن الدورات الوبائية المتكررة بإفريقية فيما بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين (القرنين 14 و 15 ميلاديين). وأما فيما يتعلق بتطور فن صناعة النقائش الإسلامية، فإنّ هذا الشاهد يقدم أدلة قاطعة وجود ورشة حاولت النهوض بالخط وتجويده من خلال إحياء عديد التقنيات الكتابية والزخرفية المعروفة في الأسلوب الكوفي المورق المنتشر بالقيروان وخاصة خلال الفترة الصنهاجية ودمجها ضمن الكتابة اللينة. وقد مكنت المقارنات مع مجموعة من الشواهد القيروانية الراجعة إلى القرن العاشر الهجري (القرن 16 ميلادي) من رصد ورشة محلية عملت بهذا الأسلوب الكتابي والزخرفي لمدة طويلة لا تقل عن الثلاثين سنة فيما بين سنتي 963 و 993 / 1556 - 1585.

¹⁸ انظر: لطفي عبد الجواد، 2013، ص. 94-93 و 97.

¹⁹ هذا الشاهد يحمل رقم الجرد عدد 1028 ضمن نقائش مستودع الآثار بمتحف رقادة.

²⁰ هذا الشاهد يحمل رقم الجرد عدد 975 ضمن نقائش مستودع الآثار بمتحف رقادة.



قائمة المصادر والمراجع

الجبرتي عبد الرحمن بن حسن، المتوفى: 1237هـ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل بيروت.
ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد القرطبي الظاهري، المتوفى: 456هـ جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1983.
الرصاص محمد بن قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، التونسي المالكي المتوفى: 894هـ الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، المكتبة العلمية، 1931.
القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي، المتوفى سنة 1418/821-1419، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، 1982.
الجراري فتحي، قياس الوقت في تونس عبر التاريخ، مدينة العلوم، تونس، 2015.
الجودي محمد، القيرواني المتوفى سنة 1373/1943، تاريخ قضاة القيروان، تقديم وتحقيق أنس العلاني، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، قرطاج، 2004.
ابن حيدة يوسف، التواصل الصوفي للطرق الصوفية بين الجزائر وتونس خلال الفترة العثمانية الطريقة الشاذلية نموذجاً، أطروحة دكتوراه، جامعة جيلالي لبياس - سيدي بلعباس - الجزائر، 2016-2017.
عبد الجواد لطفي، "الطاعون بإفريقية من خلال شواهد قبور قيروانية جديدة"، في القيروان وجهتها: دراسات جديدة في الآثار والتراث، أعمال الندوة العلمية الدولية الثالثة لقسم علم الآثار (القيروان 1-4 أفريل 2009)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان- مركز النشر الجامعي، تونس، 2013، ص. 96-98.

Abdeljaouad Lotfi, 2001, *Inscriptions arabes des monuments islamiques des grandes villes de Tunisie : Monastir, Kairouan, Sfax, Sousse et Tunis (2è s. / 8è s. - 10è s. / 16è s.)*, Thèse de doctorat nouveau régime, sous la direction de S. ORY, Université de Provence Aix-Marseille 1.

Brosselard Charles, "Les inscriptions arabes de Tlemcen", dans *Revue Africaine*, 4ème année, t. IV, février 1860.

Bourouiba Rachid, 1984, *Les inscriptions commémoratives des mosquées d'Algérie*, Alger.

Ifrah Georges, 1981, *Histoire universelle des chiffres*, Paris.

Inventaire sommaire des archives communales antérieures à 1790 (ville de Nantes), Série Bb., 1582-1583.

Jarray Fathi, 2007, *Inscriptions des monuments de la Régence de Tunis à l'époque ottomane : étude épigraphique et historique*, Thèse de Doctorat, Sous la direction de S. Ory et de M. Chapoutot-Rémadi, Aix-Marseille 1.

Jarray Fathi, 2016, « Muhammad ben Fâris : un gnomoniste kairouanais du XVII^e », *Actes du cinquième colloque international Peuplement, territoire et culture matérielle dans l'espace méditerranéen* (Kairouan 15, 16 et 17 avril 2014), Tunis, p.227-236.

Manchicourt Charles, 1939, *Kairouan et la Chabbia (1450-1592)*, Tunis.

Preto Paolo, 1978, *Peste e societa a Venezia nel 1576*, Vencence Neri Pozza, 1979, *Venezia e la peste, 1348-1797*, Comune di Venezia, Assessorato alla cultura e belle arti, Marsilio editori, Venise.

Roy Bernard et POINSSOT Paule, 1983, *inscriptions de Kairouan*, 3è partie, publiée avec le concours de S. M. ZBISS, Notes et Documents, 3ème série, vol. 5, Institut National d'Archéologie et d'Art (I. N. A. A.), Imprimerie al-ASRIA, Tunis.

Ryckmans G. et Moreau F., 1926, «Un gnomon arabe du XIV^e siècle (?)», dans *Le Muséon-Revue d'Etudes Orientales*, t. XXXIX, Louvain, p. 33-34 et 41.